حينما كنَّا على الجسر

ديما الصايغ

«عانيت كثيراً في ولادتك، لقد كان الحبل السري ملتفاً حول رقبتك، خفت عليك كثيراً، ولدت سمراء اللون، وتفاجأنا كثيراً لأن أختك البكر كانت بيضاء. كان هناك فرق كبير بينك وبينها من حيث اللون» .... هذا ما تقوله أمي دائماً لي عن لحظة ميلادي الصعبة.

ميلاد وطفولة كانا في الكويت، حيث كانت حياة مستقرة لم ينقصنا فيها شيء سوى اشتياقنا للوطن وللأهل في فلسطين، فكنا نعود إليهم بزيارة مع كل صيف لنروي جزءاً من ظمأ ذاك الاشتياق، نحمل معنا ما استطعنا منهم أثناء عودتنا، لنروي به ظمأ غربتنا حتى حدث ما لم يكن متوقعاً. ففي إحدى الزيارات، وبينما كنا نقطع جسر الأردن عائدين إلى الكويت، يصلنا خبر اجتياحها واستحالة العودة إليها، ما اضطرنا إلى المكوث في الأردن، على أمل انتهاء ما سمي بـ «حرب الخليج».

طالت الحرب، ولم نستطع العودة إلى البلد التي تركنا فيها كل ما نملك، فاضطر أبي وأمي إلى العودة إلى بيتنا هناك، ليحضرا ما تمكنا من إحضاره، حتى نستخدمه في إقامتنا في الأردن، حيث انتظرناهما عند بيت جدي.

كان لنا في الأردن حياة جديدة مختلفة عن تلك التي عشناها في الكويت، حيث كنا ندرس في مدارس خاصة، لكن في الأردن، وبسبب الأزمة التي مرّ بها والداي، اضطررنا إلى الالتحاق بمدارس حكومية، حيث شعرنا بأننا كنا منبوذين جداً، كانوا كلما رآنا الطلاب يقولون «هؤلاء هم الفلسطينيون الذين جاءوا من الكويت للعيش في وطننا الأردن».

كنا غرباء في المدرسة، لم نشعر يوماً بأننا ننتمي لها، كنا نمر فيها أحياناً بأوقات صعبة، وأحيانا أخرى بأوقات لا بأس بها. أذكر في أحد الأيام، وفي حصة مادة الرياضيات، كتبت المعلمة مسألة على اللوح، وطلبت منا أن نقوم بحلها، كنت أعشق حينها هذه المادة، حللتها لكن بطريقة مختلفة عن الطريقة التي شرحتها المعلمة، وحلّ بها الطلاب، فطلبت المعلمة حينها أن أقوم وأحلها على اللوح أمام

طلاب الصف، وكأنها تريد التأكد على أنني أعرف الحل، فتفاجأت جداً حين فعلت وبكل ثقة.

ولكن في مرة أخرى طلبت المعلمة أن أحل مسألة في الهندسة قامت بكتاباتها على اللوح، لم أستطع حينها الوصول إلى الحل الصحيح، فضغطت المعلمة عليّ لأقوم بإيجاد الحل، ومن شدة ما فعلت، تركّز كل انتباهي على الزاوية التي وضعتني بها المعلمة بدلاً من التركيز على المسألة وطريقة حلها، فشعرت بالعجز التام، وأمام نظرات الجميع، انهرتُ بالبكاء بحرقة كبيرة، لم أشعر في يوم من الأيام بأنني ضعيفة مثلما شعرت في ذلك اليوم، قررت حينها أن أتابع دراستي بمادة الهندسة.

التحقت بالجامعة ودرست الهندسة الزراعية. كانت مرحلة جديدة أخرى في حياتي، تعرفت من خلالها على أناس جدد، وخضت من خلالها تجربة نوعية جداً؛ تجربة بدأت بدموع انهارت نتيجة الشعور بالغربة، ومن شدة التعب الذي عانيناه حين انتقلنا إلى العمل في الميدان، حيث ذهبنا للعيش لمدة فصل دراسي في الغور حياة الإنسان البدائي، عملنا خلالها على استصلاح الأراضي الزراعية، وتربية الدواجن، والحصول على طعامنا من منتجاتنا. بكينا من شدة تشقق أيدينا وتقرح الجروح فيها، من شدة الألم في أرجلنا وقلة النوم ... ولكنها تجربة انتهت، أيضاً، بالدموع؛ دموع تعلقنا ببعضنا البعض، وحبنا للتجربة التي أضافت الكثير لنا على جميع الأصعدة. فهي كانت من أجمل التجارب التي خضتها في حياتي.

لم تنتهِ الانتقالات من مرحلة إلى أخرى في حياتي، فقد كان آخرها الانتقال إلى فلسطين للاستقرار فيها بعد الزواج من ابن عمتي الذي كان يسكنها، حيث بدأت مرحلة معاناة أخرى، وهي عدم توفر العمل لخريجي الهندسة الزراعية، وبخاصة في مدينة رام الله، بقيت 6 سنوات في البيت منتظرة لتلك الفرصة التي يمكن أن تتاح لي هنا أو هناك، لكن للأسف لم تأتِ. فقررت أن أجرب حظي في مجال عمل آخر غير تخصصي.

توجهت في أحد الأيام إلى إحدى المدارس لأقدم فيها طلباً للعمل، فسألتني نائب المدير: ماذا تحملين شهادة؟ أجبتها: «هندسة زراعية»، ضحكت مستهزئة، وأضافت: «إذا ستفلحين رؤوس الطلاب بها»؟ أجبتها: «نعم، سأحاول».

أطفال روضة سيدة البشارة للروم الكاثوليك في رام الله يشاركون في فعاليات فنية مع مربيتهم ديما الصايغ.

كان وقع استهزائها بي صعباً علي، وأشعرني بأن فرصتي في العمل في مجال التعليم شبه مستحيلة، إلى أن هاتفتني في اليوم التالي طالبة مني أن أحضر لمقابلة المديرة التي أبدت رغبتها في توظيفي لأعمل في الروضة، حيث يوجد شاغر، لم أتردد في قبول العرض.

عملت في الروضة، واستطعت أن أقدم تعليماً مختلفاً، استخدمت فيه كل مهاراتي ومعرفتي التي بنيتها بشكل ذاتي، إلى أن طلبت مني المديرة في أحد الأيام أن أتوجه إلى حضور يوم دراسي في جمعية الهلال الأحمر في البيرة، كان قد نظمته مؤسسة عبد المحسن القطان، التي وجهت لنا دعوة لحضوره. تفاجأت جداً بما سمعت ورأيت، كانت المشاركات تصفن تجربتهن في التعليم التي اكتسبنها من مشاركتهن في برنامج مع «القطان» بشكل لم أسمع عنه من قبل.

عدت إلى المديرة أصف لها بعضاً مما أبهرني، طالبة منها أن تساعدني في الالتحاق في هذا البرنامج، وفعلت.

تجربتي مع «القطان» هي التي شكلت الإضافة النوعية لحياتي المهنية والشخصية، تجربة أثرتني كثيراً، حققت لي إضافة نوعية، وشكلت لي الدعم، وصقلت معرفتي، حفزتني على تطوير ذاتي بشكل مستمر، جعلتني ألتقي بأشخاص جدد، أصبحوا من أعز الصديقات، فتحت عيني على طلابي لأراهم بعيون جديدة، عيون رأت ما يملكون من قدرات تفوق أعمارهم، جعلني البرنامج أؤمن بأن المعلمة هي ليست شهادة وتخصص، بل هي إنسان بكل ما يحمله من إيمان بالرسالة التي يقوم بها، ومن دور مهم جداً يقوم به، ويجب أن يسعى دوماً إلى البحث عن ممكنات لتطويره.

روضة سيدة البشارة للروم الكاثوليك – رام الله

أطفال الروضة خلال أحد التطبيقات حول الزراعة.